مجلة العلوم الإنسانية

علمية محكّمة ـ نصف سنوية

Journal of Human Sciences

تصدرها كلية الآداب / الخمس

جامعة المرقب. ليبيا

Al - Marqab University- Faculty of Arts- alkhomes

25

العدد

الخامس

والعشرون

سبتمبر2022م

تصنيف الرقم الدولي (ISSI/2710-3781)

رقم الإيداع القانوني بدار الكتب الوطنية (2021/55)

تأثير الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوروبية

إعداد : د. جمال أحمد الموبر

المقدمة

كان تأثير الحضارة الإسلامية على الحضارات الأخرى واضح في العديد من مناطق العالم التي حافظت على كنوز العمارة الإسلامية وتأثرت بها، وذلك لاحتوائها على آثار فريدة ذات مهارة فائقة ابتكرها صناع مسلمون، أو معماريون منضوين تحت لواء الإسلام، فهناك منطقة لم تعد تخضع لحكم المسلمين، قد نشأت بها حضارة ظلت قروناً عديدة ذات صلة وثيقة بالعالم الإسلامي، تضم الجزء الأعظم من شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحديداً الأندلس والتي سوف يتناولها بحثنا هذا كنموذج في تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية في فن العمارة على الأندلس وصقلية، وهي تمثل بعض الجوانب المشرقة التي تميت بها الحضارة العربية الإسلامية في ذلك القطر الثاني، والتي ما هي إلا امتداد لحضارة العرب والمسلمين في المشرق، ويظهر فيها فضل المسلمين ودورهم في تاريخ الحضارة الإنسانية وتأثيرهم على الحضارة الأوروبية في شتى المجالات العلمية والثقافية ولاسيما فن العمارة والفنون.

كان ظهور الإسلام إيذاناً بمولد الدولة العربية الإسلامية، وأصبح العرب رسل الحضارة الإسلامية، وبدأوا يدخلون التاريخ من أوسع أبوابه، وعملت الدولة الوليدة على نشر الإسلام والثقافة العربية، فكانت الفتوحات العربية الإسلامية في عهد الخليفتين الأولين أبي بكر وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما، فتم القضاء على الدولة الفارسية، واستولى العرب المسلمون على الشام ومصر من الدولة البيزنطية، ثم توالت الفتوحات في العصر الأموي، فاستولى المسلمون على بقية شمال إفريقيا، ثم غزوا القارة الأوروبية، فاستولوا على شبه جزيرة إيبيريا وجنوب

فرنسا، واستمرت العرب المسلمون في غزو أوروبا حتى استولوا على جزر البحر المتوسط الأوروبية، وإيطاليا، ونجحوا في تثبيت أقدامهم ونشر دينهم وحضاراتهم في أرجاء كثيرة من القارة الأوروبية[1].

كانت أوروبا قبل الفتح الإسلامي، باعتراف جميع المفكرين الأوروبيين تسبح في الظلام، وتعاني ن التأخر والفوضى، فنشر العرب بها حضارتهم، وأبدلوا إظلام أوروبا بنور من العلم والعرفان والمدنية، وأرسوا قواعد حكومة عادلة، تحرص على تحقيق الحرية والمساواة وتعمل لصالح رعاياها من الأوروبيين، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين، يلقنوهم أسس الحضارة العربية الزاهرة، ومكتب العرب في صقلية وجنوب إيطاليا ثلاثمائة سنة تقريباً، فاستعرب أهل تلك المناطق وأصبحوا يتكلمون اللغة العربية، فقد كتبت إسبانيا العربية الإسلامية صفحة من أروع صفحات التاريخ الحضاري لأوروبا في العصور الوسطى، وكانت الحضارة الإسلامية أساس النهضة في أوروبا، وأوفدت دول أوروبا بعثات علمية إلى الأندلس العربية لتتلقى العلوم والأفكار العربية[2].

من أبرز المفكرين الذين تحدثوا عن الحضارة العربية في حضارة أوروبا "غوستان لوبون" الذي وضع كتاباً قيماً بعنوان: "حضارة العرب" أنصف فيه العرب وتكلم على الأسس العربية للحضارة الأوروبية الحديثة، بقوله: كان تأثير العرب على الغرب عظيماً، وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوروبا، ولم يكن نفوذهم في الغرب أقل مما كان في الشرق، ويرى "لوبون" أيضاً أن الحضارة العربية لم تدخل إلى أوروبا بنتيجة الحروب الصليبية كما هو الرأي الشائع، بل دخلت بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا، ويقارن "لوبون" بين إسبانيا العربية وسائر أرجاء أوروبا

(1) أنيس الأبيض: بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، طرابلس، لبنان، 1994م، ص9.

(2) علي حسن الخربوطلي: العرب في أوروبا، الدار المصرية للنشر، 1965م، ص4.

فيقول: "تمتعت إسبانيا بحضارة سامية بفضل العرب، بينما كانت بقية أوروبا غارقة في ظلام وتأخر[1].

واعترف المؤرخ (دينو) في كتاب "تاريخ غزوات العرب" بفضل العرب على حضارات أوروبا فقال: "أن النهضة الحقيقية في أوروبا لم تبدأ غلا منذ القرن الثاني عشر، حيث أفاق الفرنسيون والإنجليز والألمان ووجدوا ضرورة الاشتراك في الحضارة العربية، فأخذ المسيحيون في فرنسا وما جاورها يؤمون إسبانيا لترجمة الكتب العربية، وأصبح العرب المثل الأعلى للشجاعة والشهادة وعزة النفس ومكارم الأخلاق، وقال (ساريتو) في كتابه "الحضارة": إن ما أتت به الحضارة العربية في باب العلم، ولاسيما العلوم وتطبيقها أعظم بكثير مما أتت به في هذا السبيل الدولة البيزنطية، إذ أن الحضارة البيزنطية لم تأت بفكر جديد[2]، عندما فتح المسلمون بلاد الأندلس، وعاشوا فيها نحو ثمانية قرون شيدوا فيها لأنفسهم العمائر المختلفة من مساجد وقلاع وقصوراً كما أنشأوا الصناعات المختلفة، وأن حضارتهم كانت أرقى من حضارة أهل البلاد فتركت آثارها هناك، وخطت بالأندلس نحو التقدم خطوات واسعة، والواقع أن تأثير الحضارة الإسلامية في الأندلس كان قوياً سواء خلال فترة وجود المسلمين في البلاد أو بعد خروجهم منها، ففي الحالة الأولى، كان بعض الإسبان ممن عاشوا في ظل الدولة الإسلامية، فترة من الزمن قد أخذوا يهاجرون حاملين معهم بذور الحضارة الإسلامية وأسرار الفنون الزخرفية، وقد زرع المستقرون هذه البذور ونشروا تلك الأسرار في البلاد التي استقروا فيها، وفي الحالة الثانية، أي بعد خروج المسلمون من الأندلس، فإن مظاهر هذه الحضارة الإسلامية بقيت شاداً على روع الإنجازات الضخمة التي حققها الوجود الإسلامي، مما أتاح الفرصة للشعوب الأوروبية للاستفادة من هذه الإجازات، كما أنه قد نشأ على أكتاف

(1) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: أكرم زعيتر، لندن، 1964م، ص566.

(2) علي حسن الخربوطلي: مرجع سبق ذكره، ص114 – 115.

المستعربين والمدجنين المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد خروج المسلمين فيها، الطراز الوطني الإسباني الذي استحدثت منه الفنون الأوروبية الشيء الكثير[1].

ويتضح لنا أن أثر المسلمين الحضاري على الإمارات الإسبانية في الشمال لم يقتصر على النواحي الثقافية والدينية والاجتماعية والتشريعات القانونية فحسب، بل شمل مجالات أخرى منها الفنون لاسيما فن العمارة والبناء[2].

لقد نقل المدجنون فن العمارة والبناء إلى مناطق متعددة من الشمال، وظهر أثر هذا الفن في إسبانيا النصرانية منذ القرن الرابع للهجرة / التاسع الميلادي، واستمر فيها وأثر على الكنائس، والبنايات المدنية الأخرى، ويتميز هذا الفن، لاسيما في الكنائس، بوجود القباب التي ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة الفرس[3].

وعندما نتكلم عن فن العمارة في صقلية فنجد "أن رجار" الأول الذي قضى ثلاثين عاماً في افتتاح صقلية أطرى جمال من البناء العربي في الجزيرة والمهارة العجيبة في تشيده، وذلك واضح بناء حمامات جفلوذي، وبقايا القصور والحمامات (في القصر الملكي قرب بلرم) المعروف بالبحر العذب، فهي أقدم الآثار العمارية العربية التي مازالت بقاية في صقلية، ويلاحظ أن بناء هذه الحمامات وزخرفها لا يختلفان كثيراً عن بناء وزخرفة الحمامات العربية في الأندلس وفي العراق على عهد العباسيين، وتشاهد عليها الزخارف الكتابية المتمثلة في خطوط ملتوية خارجة عن

(1) فيصل حسون، "الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، الرياض، 1979م، ص218.

(2) إلى لامبير: تطور العمارة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال وشمال أفريقيا، ترجمة: جليان عطا الله، بيروت، 1985م، ص168.

(3) مانويل جوميث مورينيو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة: لطفي عبد البديع، المجيد محمد عبد العزيز، الهيئة العامة للكاب، القاهرة، 1977م، ص439.

المـألوف، وكتبـاات كوفيـة منمقـة مـع زخرفـة أُرابيسـكية علـى شـكل أوراق شـجر متشابكة[1].

ترجع أصول العمارة الإسلامية في الأندلس إلى عصر الدولة الأموية، فما كاد عبد الرحمن بن معاوية الداخل يظفر بإمارة الأندلس، ويستقيم أمره بها حتى شرع في تجديد ما طمس لبني أمية في المشرق من بهاء الخلافة وعظمتها، فبنى المسجد الجامع وقصر الإمارة بقرطبة، وكان دائماً في اشتياق إلى دمشق مسقط رأسه، فأقام مدينة الرصافة شمالي غربي قرطبة وبني بها قصراً رائعاً أحاطه بالجنان والبساتين وأقام بقرطبة قصر الدمشق، وأبدع في عمارته ليقلد به قصور أجداده بالمشرق[2] (لوحة 1).

وفي عصر الخلافة الأموية أحاط خلفاء بني أمية وأمراؤهم دولتهم بكل مظاهر العظمة والفخامة، وكانوا بناة عظاماً، فجملوا عاصتهم وعمروها بالأبنية التي تعتبر أروع ما جاء به الفن الأندلسي، وبلغت قرطبة في عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله قمة المجد وذروته من النواحي السياسية والفنية والمعمارية، فقد بلغت الأندلس في عهده مستوى من الثراء والرضاء منقطع النظير، فرأى أن يبني قصراً يليق بجلال الخلافة وعظمتها، فبنى مدينة الزهراء على بعد خمسة أميال تقريباً غربي قرطبة على سطح جبل العروس، وشيد بها روائع القصور والقاعات والمجالس التي أطنب في وصفها المؤرخون، وكانت أسقف هذه القصور

(1) عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، الدار العربية للكتاب، الرياض، 1980م، ص112.

(2) محمد عبد المنعم الجمل: قصور الحمراء "ديوان العمارة والنقوش العربية"، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2004م، ص27 – 28.

من القراميد المذهبة، وعمدها من الرخام والمرمر، وجدرانها مكسورة بروائع الزخارف الرخامية والجصية[1]. لوحة (2).

وأثبتت الحفريات الأثرية التي أجريت في أطلال مدينة الزهراء ابتداءً من عام 1911م، أن جدران المدينة والقصور كانت تتميز بتقانة البناء بالحجر المصقول، وتكسوها كسوات جرية وحصية دقيقة نحتت فيها توريقات قوامها ورقة الأكنتس ثلاثية الفصوص في صور شتى، كما كسيت عضادات الأبواب بكسوة رخامية تزدان بزخارف نباتية مورقة ومحفورة حفراً غائراً يبرز التباين بين الظل والضوء، أما تيجان الأعمدة فاتسمت جميعاً بطابع مميز فريد من نوعه، وإن كانت تميل إلى النوع الكورنتي، وقد أعيد استخدام هذه التيجان في عصر الفتنة عندما أصبحت أطلال الزهراء محجراً لبيع مخلفات القصور من تيجان الأعمدة ومرمر وتحف عاجية وأحجار كريمة مما كانت ترصع به أبواب المجالس والقاعات، ففي قصر اشبيلية مازالت أعداد كبيرة من تيجان الزهراء مستخدمة في قاعة السعر[2]، لوحة(3).

وفي عصر ملوك الطوائف تطورت العمارة والفنون الإسلامية تطوراً كبيراً وازدهر فن البناء، وبلغ العرفاء والفنانون الغاية في التفنن في التزيين والحشو الزخرفي، وكان للفن الخلافي بقرطبة الفضل في تشكيل الفن الزخرفي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، فقد استخدموا العقود المتقاطعة والمتشابكة التي تظهر فيها التوريقات المتداخلة إلى حد من التعقيد يستحيل معه المرء أن يتقصى امتداد خطوط العقود إذ هي تتداخل وتتشابك فيما بينها بطريقة ساحرة أخادة، ونلمس في فنون

(1) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، القاهرة، 1955م، ص32.

(2) عبد العزيز سالم: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الأول، الكويت، 1977م، ص85.

الزخرفة الأندلسية في هذا العصر سواء في سرقسطة أو في طليطلة وغرناطة، وملقة والمرية واشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس تحرراً مما كان يغلب عليها من جمود، كما نشهد حرية في الأداء ورشاقة في الحركة، وميلاً إلى التموج والانثناء والتداخل والتشابك[1] لوحة (4).

وتظهر بقايا قصر الجعفرية بسرقسطة لوحة (5)، وقصر القصب بملقة لوحة (6) مدى الغلو في الحشد الزخرفي، والمزج بين المنظر الطبيعي وفن البناء في صورة فنية رائعة، ويحتوي قصر الجعفرية على عناصر معمارية وزخرفية فريدة من نوعها كان لها الأثر في التأثير على العمارة الأندلسية خاصة في العناصر المعمارية والزخارف الجصية التي وصلت إلى قمة تطورها، وينسب بناء هذا القصر إلى أي جعفر أحمد المقتدر بالله بن هود أشهر ملوك بني هود في سرقسطة فيما بين عامي 439هـ / 474هـ، ومن كنيته "ابي جعفر"، جاء اسم الجعفرية، وكان يضم قاعات ومجالس عديدة تعنى بها الشعراء مثل دار السرور ومجلس الذهب، وقد تحول هذا القصر إلى دير بعد سقوط سرقسطة في أيدي النصارى[2].

وقد تبقى من القصر الإسلامي بعض بوائك من العقود المخصصة، وتتألف كل بائكة من ثلاثة عقود تعلوها بائكة أخرى، تتداخل فيها العقود المخصصة والمتشابكة إلى حد الغلو في التعقيد والتشبيك المعماري والزخرفي لوحة(6).

أما عن عصر المرابطين في الأندلس فيجب أن نذكر أن دولة المرابطين من الدول التي قامت في بلاد المغرب لمحاربة المارقين على الإسلام وتوحيد المغرب تحت راية الإسلام، بذلوا أرواحهم في سبيل نشر الإسلام في جنوب بلاد المغرب، وقد رأى المرابطون بعد عبورهم إلى الأندلس العمل على إعادة وحدتها ولم

(1) محمد عبد المنعم الجمل، مرجع سبق ذكره، ص30.

(2) محمد عبد المنعم الجمل: المرجع نفسه، ص31.

شتاتها، وجمع كلمة المسلمين تمهيداً للجهاد ضد الممالك الإسبانية، فأكثروا من بناء الأسوار والحصون والقلاع، حتى أنهم فرضوا ضريبة عرفت بالتعقيب، الهدف منها تمويل بناء الأسوار حول مدن الأندلس كالمرية وغرناطة واشبيلية، وابتكروا التحصين الأسوار وسائل جديدة مثل الأسوار المتعرجة التي تكثر فيها الزوايا التي تشكل عوائق أمام العدو المهاجم للمدينة، كذلك لجأ المرابطون إلى فتح أبواب ذات ممرات منكسرة داخل أبراج مفرغة، لتعيق العدو عند هجومه على المدينة، ويتمثل ذلك في باب قرطبة بسور اشبيلية[1].

وكان لانشغال الموحدين كسلفهم المرابطين بالجهاد في الأندلس ضد قوى مسيحية صليبية متعددة الجنسيات أثره على العمارة العسكرية وتحصين المدن، فقد لجأوا إلى تحسين وسائل دفاعية جديدة مثل الأبواب المنكسرة، والأبراج متعددة الضلوع ذات القدرة الدفاعية المتميزة عن الأبراج المربعة، أما إذا كانت المدينة الإسلامية تقع على شاطئ نهري فيستخدم سلسلة تشد ما بين برجين ينتصبان على ضفتي النهر لمنع سفن الأعداء من مهاجمة المدينة من جهة الشاطئ على النحو الذي كان متبعاً في اشبيلية ما بين برج الذهب، وأحد أبراج ربطها القبلي طريانة[2].

كذلك أكثر الموحدون من إقامة القصاب الحصنة في أكثر مناطق المدينة ارتفاعاً للتحكم في العدو، إذا ما أقدم على حصار المدينة، ومن أمثلة تلك القصاب في الأندلس قصبة بطليوس، وقصبة تالقة، وقصبة اشبيلية، وقصبة غرناطة، وفي الوسائل التي توصل إليها الموحدون لتحسين وسائل الدفاع الإسلامي عن المدن والمواقع الإسلامية المعرضة للعدوان، استخدام الأسوار الأمامية، أو الأحزمة البرانية، بهدف وضع عوائق أمام العدو، أو إقامة خط دفاعي أمامي يعرقل تقدم العدو ويدعم النظام الدفاعي، كما توصلوا إلى فكرة إنشاء أبراج برانية تقام في

(1) عبد العزيز سالم: مرجع سبق ذكره، ص102.

(2) عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية في المغرب الأندلسي، دار الثقافة، القاهرة، 1972م، ص862.

المواضع الضعيفة من الدفاع خارج المدن لوحة (7)، وترتبط بالأسوار الخارجية عن طريق قورجة أو جدار عمودي عليها[1]، هذا عن العمارة العسكرية، أما العمارة الدينية فقد تبقى من عصر الموحدين في اشبيلية حاضرتهم في الأندلس صومعة جامع القصبة المعروفة بالخير الدا، والمدخل الرئيسي للجامع المعروف بباب الغفران، بمصراعيه المصفحتين بصفائح النحاس، وعقده المنفوخ المطل على الصحن ويقع في نفس محور الباب المذكور، ويتميز بزخارفه النباتية التي يكتظ بها باطن العقد والشريطان اللذان يكتفانها[2].

ويتضح لنا أن آخر طرز العمارة الإسلامية في الأندلس، وأعني به فن بني نصر سلاطين غرناطة، ويرجع إليهم الفضل في إنشاء مجموعة قصور الحمراء التي تضم عدداً من الوحدات المعمارية بعضها قاعات ومجالس وبعضها أبهاء وبساتين تتخللها الجداول والبرك الصناعية، شكل (1)، خطط لها فوق تل السبيكة الذي عرف بهذا الاسم لتحوله إلى اللون الذهبي عندما تسقط عليه أشعة الشمس، وقد اتسعت الحمراء بما أضيف إليها من قصور وأبراج وقاعات ومرافق مختلفة ومتعددة الأغراض، حتى أصبحت بحق مدينة ملكية تضم القصور والحمامات والمساجد السلطانية والمنتزهات وصهاريج المياه وتطوقها الأسوار والأبراج المحصنة[3]، لوحة (8).

([1]) عبد العزيز سالم: المساجد والقصور، الإسكندرية، 1988م، ص585.

محمود عبد المنعم الجمل: مرجع سبق ذكره، ص35.

([2]) محمد عبد المنعم الجمل: مرجع سبق ذكره، ص37.

([3]) محمد عبد المنعم الجمل: مرجع سبق ذكره، ص37.

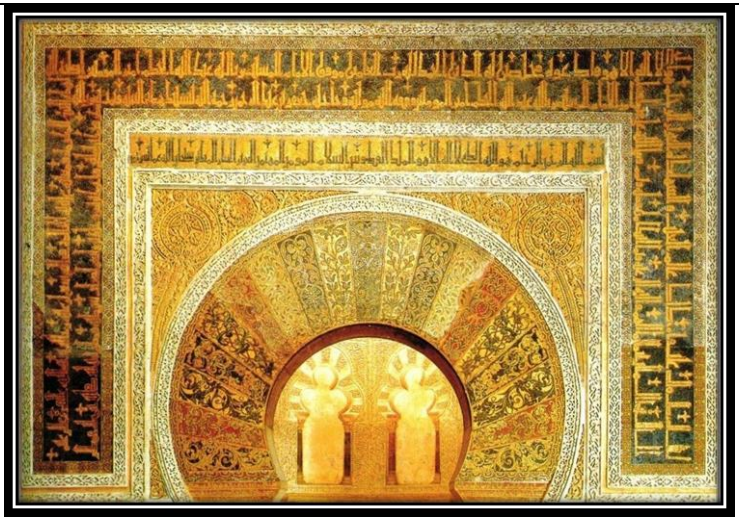

لوحة رقم (1) محراب جامع قرطبة

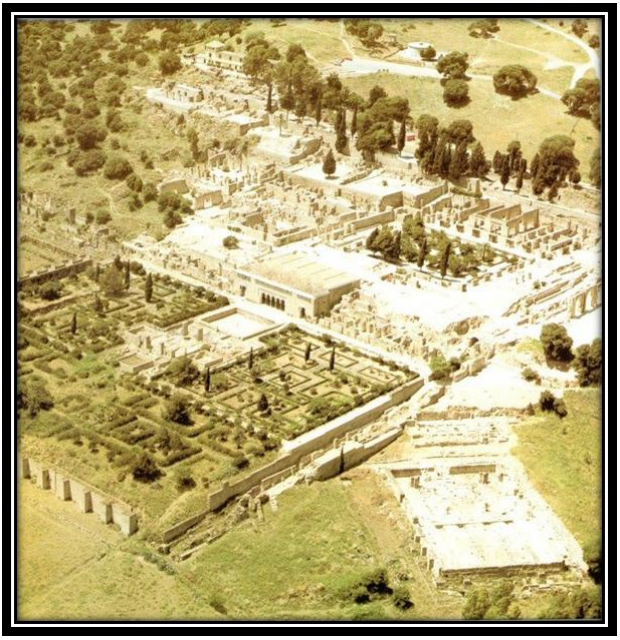

لوحة رقم (2) حفائر مدينة الزهراء

لوحة رقم (3) البائكة التي تتقدم المدخل إلى قاعتي البركة والسفراء

لوحة رقم (4) نقوش قاعدة الأسرة

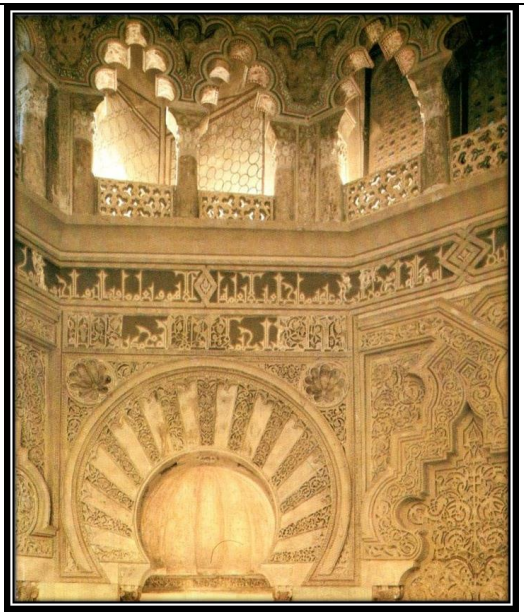

لوحة رقم (5) محراب المصلّى . قصر الجعفرية

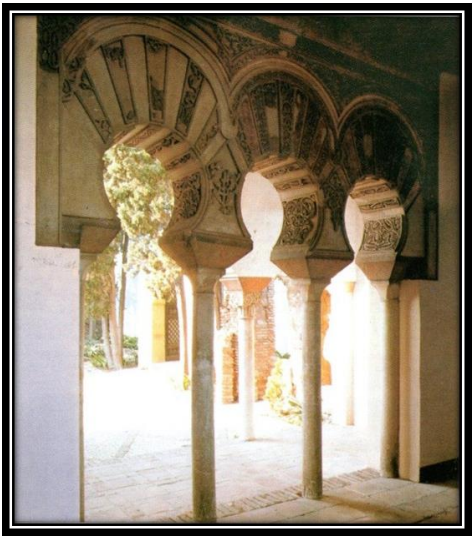

لوحة رقم (6) قصر بني حمود . قصبة مالقة

لوحة رقم (7) أبراج وأسوار الحمراء من الخارج

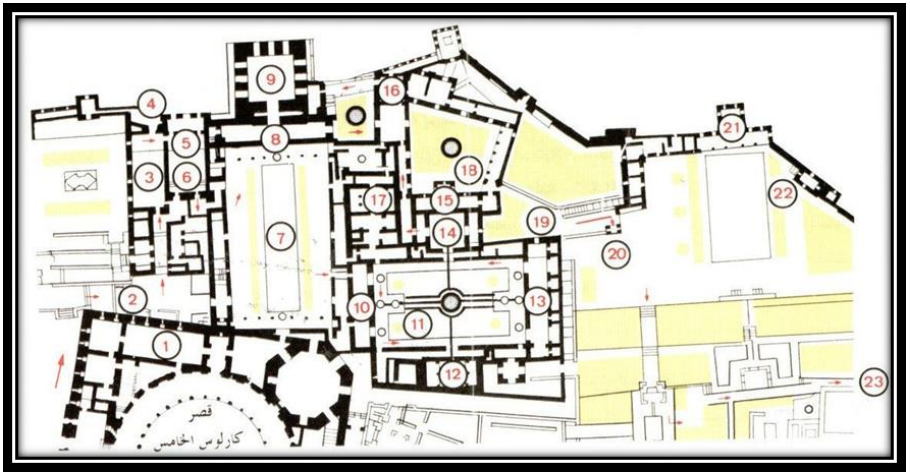

شكل رقم (8) مخطط القاعات والأبهاء في قصور الحمراء

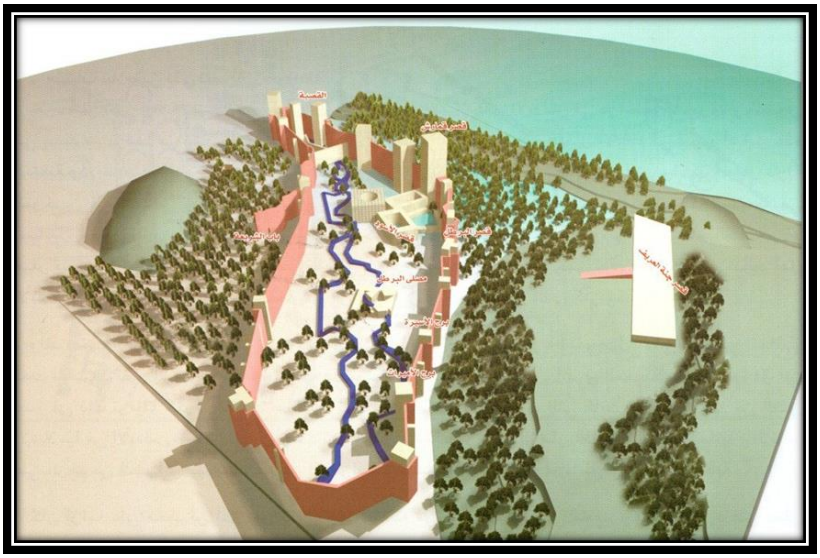

لوحة رقم (9) منظور لأسوار وأبراج وقصور الحمراء

قائمة المصادر والمراجع

1-أنيس الأبيض: بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، طرابلس، لبنان، 1994م.

2-علي حسن الخربوطلي: العرب في أوروبا، الدار المصرية للنشر، 1965م.

3-غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: أكرم زعيتر، لندن، 1964م.

4-فيصل حسون، "الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، الرياض، 1979م.

5-إلي لامبير: تطور العمارة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال وشمال أفريقيا، ترجمة: جليان عطا الله، بيروت، 1985م.

6-مانويل جوميت مورينيو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة: لطفي عبد البديع، المجيد محمد عبد العزيز، الهيئة العامة للكاب، القاهرة، 1977م.

7-عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، الدار العربية للكتاب، الرياض، 1980م.

8-محمد عبد المنعم الجمل: قصور الحمراء "ديوان العمارة والنقوش العربية"، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2004م.

9-ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، القاهرة، 1955م.

10-عبد العزيز سالم: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الأول، الكويت، 1977م.

11-عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية في المغرب الأندلسي، دار الثقافة، القاهرة، 1972م.